قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

نشأة الحضارة

تقديم
الدكتور محيي الدين صابر

ترجمة
الدكتور زكي نجيب محمود

الجزء الأول من المجلد الأول

١





تونس
بيروت

قصة الحضارة

يَسُرُّ "دَارُ الجِيلِ" أَنْ تُقَدِّمَ

قِصَّةُ الحَضَارَة

فِي إِثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا
ضِمْنَ وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ مُجَلَّدًا
وَذَلِكَ بِالتَّعَاقُدِ مَعَ
المُنَظَّمَةِ العَرَبِيَّةِ لِلثَّقَافَةِ وَالعُلُومِ .

حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار الجيل : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

تقديم

للأستاذ الدكتور محيي الدين صابر

ظلّت الثقافة العربية — منذ كانت ثقافة — انسانية، منفتحة على العالم انفناحاً عضوياً ووظيفياً. فهي من حيث مقوماتها ودورها الحضاري محكوم عليها بهذا التواصل، الذي يشهد به كل تاريخها المُشْرِق. وفي هذا الاطار، كانت الخطة التي قررتها ادارة الثقافة، بالأمانة العامة للجامعة العربية، منذ وقت مبكر، حين كان انشاؤها، أن تترجم الى اللغة العربية، الأمهات، في كل مجال من مجالات الفكر والفن؛ وكانت هناك هيئة من كبار المثقفين الذين تستشيرهم الادارة، تقوم على اختيار تلك الأمهات؛ وقد كان كتاب قصة الحضارة لمؤلفه وول ديورانت من الكتب التي اختيرت لترجمتها، وهذا الكتاب الجليل، يعتبر من الكتب القليلة، التي أنصفت الحضارة العربية الاسلامية. فلقد اتسم كاتبه وول ديورانت بالروح الموضوعية، وبالمنهج العلمي، وبالالتزام الخلقي؛ وهو من الكتاب الغربيين القليلين الذين اعترفوا بفضل الحضارات الشرقية، وتأثيرها الكبير في الحضارة اليونانية واللاتينية، اللتين يعتبرهما المؤرخون، بداية الحضارة الانسانية؛ وأن الانسان، انما خلق مع الحضارة اليونانية. وأهملوا كل تلك الروائع الفكرية في الفلسفة وفي الهندسة والعمارة وفي الطب وفي الصناعة وفي القانون والادارة والاقتصاد، وفي الفنون

في مختلف أجناسها، كل ذلك جحده الغرب وأهمله في محاولة لانكار الطبيعة السيالة للحضارة البشرية، ولتبادل الخبرات واتصال السعي الانساني. ومن هنا فقد كان لهذا الكتاب أهميته العلمية والتاريخية.

إلاَّ أن هذا الكتاب، من حيث تصوره ومنهجه، جديد في تناول التاريخ، كحركة متصلة، ويقدمه، في صورة تأليفية متكاملة، بما يعين على فهم فكري واضح لمسيرة التاريخ وللمعالم الحضارية ولمراحلها، جغرافياً وموضوعياً. فقد صف التراث البشري، على هذا الأساس، في خمس مناطق، وبدأ أولاً بالتراث الشرقي، الذي ضم حضارات مصر والشرق الأدنى حتى وفاة الاسكندر، وفي الهند والصين واليابان الى العهد الحاضر، ثم بالتراث الكلاسيكي، وهو يشمل تاريخ الحضارة في اليونان، وروما، وفي الشرق الأدنى الذي كان تحت السيادتين اليونانية والرومانية على التوالي، ثم عرض للتراث الوسيط، فذكر حضارة أوروبا الكاثوليكية والبروتستانتية، والاقطاعية، والحضارة البيزنطية، والحضارة الاسلامية واليهودية في آسيا وافريقيا واسبانيا، انتهاء بالنهضة الايطالية. ثم استعرض التراث الأوروبي، متمثلاً في التاريخ الحضاري للدول الأوروبية، منذ الاصلاح البروتستانتي الى الثورة الفرنسية؛ وأنى عرضه بالتراث الحديث الذي تناول تاريخ الإختراعات المادية والفكرية، بما في ذلك السياسة والعلوم والفلسفة والدين والأخلاق والأدب والفنون في أوروبا، منذ تولي نابليون الحكم الى العصر الحاضر..

ويقول في مقدمته لهذا السفر الجليل، والدراسة الموسوعية المستوعبة، « انه بدأ بآسيا، ليس لأن آسيا، كانت مسرحاً لأقدم مدنية معروفة وحسب، ولكن لأنَّ تلك المدنيات كونت البطانة والأساس للحضارة اليونانية والرومانية، التي ظن خطأ، السير هنري مين، انها المصدر الوحيد الذي استقى منه العصر الحديث، وسوف يدهشنا أن نعرف كم مخترعاً من ضروريات حياتنا، وكم من نظامنا الاقتصادي والسياسي وكم مما لدينا من علوم وآداب، ومن فلسفة ودين يرتد الى مصر، والشرق.

وفي القرن العشرين، حيث تسرع السيادة الأوروبية الى الانهيار، فان الأمر يبدو وكأنه صراع شامل بين الشرق والغرب. وهنا نرى التعصب الأعمى الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ، التي تبدأ رواية التاريخ الحضاري للبشرية من اليونان وتلخص آسيا كلها في سطر واحد؛ لم تعد غلطة علمية، بل كان اخفاقاً ذريعاً في تصوير الواقع، ونقصاً فاضحاً في ذكائنا. ان المستقبل يولي وجهه شطر المحيط الهادئ، فلا بد للعقل أن يتابع خطاه ».

ولقد نقلت هذه الفقرة الطويلة، من مقدمة المؤلف لأهميتها، ولأنها تعبر عن اتجاهه الفكري، ومنهجه العلمي.

هذا، ولقد استعان المؤلف في كتابته عن الحضارة العربية، بما تيسر له من المراجع المترجمة الى اللغات الأوروبية، وهي مع قِلَّتها، لا تسلم من الآفات، سواء من حيث اختيار تلك المراجع أو من حيث مستوى الترجمة التي تختلف من يد الى يد، ضيقاً، سعة، دقة وتصرفاً؛ ولقد كان حسن رأيه في هذه الحضارة، وسلامة اتجاهه نحوها، في كل حين، عصمة له من الآراء المألوفة التي يرددها الكاتبون في هذا المجال...

ولقد ألقى هذا الوضع مسؤولية كبيرة، على المترجمين العرب، الذين هم، في الوقت نفسه، من كبار الأساتذة والمثقفين، فعمدوا الى مراجعة النصوص، والى توثيقها، والى ردها الى أصولها، كما تصدوا بالتصحيح، لكل ما يبعد عن الحقيقة، فلم يكن هذا العمل في جوهره ترجمة من لغة الى لغة فحسب، ولكنه كان عملاً فكرياً مستقلاً، وتعاملاً بصيراً مع المادة تصحيحاً وتوضيحاً. ويكفي أن يكون بين هؤلاء الأستاذ الكبير الدكتور زكي نجيب محمود الفيلسوف العربي، والأستاذ محمد بدران، والدكتور عبد الحميد يونس، والأستاذ علي أدهم، والأستاذ فؤاد اندراوس، من أعلام الثقافة؛ الذين أدوا خدمة جليلة للفكر العربي، في تواصله مع الفكر العالمي.

وهكذا جاءت الترجمة العربية، مرجعاً أميناً موثوقاً به، تقدم خدمة ثقافية حقيقية للقراء العرب، ويسدّ حاجة قائمة في هذا المجال، كما كان في أصله معيناً، على تقديم الحضارة العربية، بصورة عادلة الى القراء في العالم الخارجي...

ولم يكن لهذا المشروع الطموح أن يتحقق، لولا ايمان القائمين عليه باهدافه الثقافية والقومية، فلقد بدأ المشروع، في الادارة الثقافية في الأمانة العامة في الجامعة العربية مثل كثير من المشروعات الثقافية والتربوية، الى أن قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في عام ١٩٧٠، فآلت اليها، كل الأجهزة الثقافية في الجامعة العربية، وفي مقدمتها، الادارة الثقافية، وانتقلت بذلك التزامات الادارة الثقافية، ونشاطها، الى المنظمة التي واصلت تمويل هذا المشروع والاتفاق على ترجمته. وقد صدر الكتاب في القاهرة، عن لجنة التأليف والترجمة والنشر التي يتوجه اليها الشكر في هذا المقام، في طبعتها الأولى (١٩٦٥)، وقد صدر منها لغاية الآن اثنان واربعون جزءاً. وتقوم دار الجيل حالياً بطبعها في بيروت في واحد وعشرين مجلداً بالاتفاق مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم...

وفي هذا المجال، فاننا نجدد الشكر المستحق، لعلمائنا من كبار المثقفين والمفكرين الذين أشرفوا على نقل هذا الأثر الحضاري المتميز الى اللغة العربية؛ خدمة للتعاون العالمي في المجال الثقافي؛ واغناء للثقافة العربية، وعوناً للقارئ العربي.

والله، من وراء القصد مسؤول، أن ينفع به.

د. محيي الدين صابر
المدير العام
للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م

كلمة المعرب

هذا الكتاب هو بمثابة المقدمة لمجلد ضخم وضعه « ول ديورانت » فى « التراث الشرقى » والمجلد الضخم بدوره هو الجزء الأول من خمسة أجزاء — لم تصدر كلها بعد — أخذ الكاتب نفسه بإخراجه ليبسط فيها قصة الحضارة منذ فجر التاريخ إلى يومنا الحاضر .

وقد قمت مع الأستاذ محمد بدران مراقب الثقافة العامة بوزارة المعارف ، بترجمة المجلد الأول ، بتكليف من جامعة الدول العربية ، وسيصدر هذا المجلد فى الترجمة العربية فى خمسة أجزاء بالترتيب الآتى :

(١) نشأة الحضارة .

(٢) الشرق الأدنى :

(٣) الهند وجيرانها .

(٤) الصين .

(٥) اليابان .

وقد قام زميلى الأستاذ محمد بدران بترجمة الجزءين الثانى والرابع ، وقمت بترجمة الأجزاء الثلاثة الأخرى — وهذه الأجزاء الخمسة كلها تحت الطبع ، ونرجو أن يتم صدورها بعد حين قصير ، حتى يتكامل بها عند القارئ العربى ترجمة المجلد الأول فى الأصل الإنجليزى ، وأدعو الله أن يهيئ لنا ظروفا مواتية من العافية والفراغ ،

فننقل إلى العربية المجلدات الخمسة كلها ، ليكون فى مكتبتنا صورة وافية للحضارة الإنسانية فى نشأتها وتطورها ، فنرى كم نحن مدينون لأمم غيرنا بأسباب المدنية ، وكم يدين لنا غيرنا .

ويسرنى أن أنتهز هذه الفرصة لأذكر فضل أستاذنا الجليل الدكتور أحمد أمين بك فى هذا العمل ، فباعتباره مشرفاً على النشاط الثقافى بجامعة الدول العربية قرر أن يترجَم هذا الكتاب ، وباعتباره رئيساً للجنة التأليف والترجمة والنشر رأى أن يُنشر على الوجه الذى يرى القارئ .

نسأل الله أن يهبنا فى عملنا التوفيق والسداد .

أكتوبر ١٩٤٩

زكى نجيب محمود

مقدمة المؤلف

حاولت في هذا[1] الكتاب أن أنجز الجزء الأول من مهمة تبعث السرور في نفسي ، كلفت بها نفسي منذ عشرين عاماً تقريباً تكليفاً دفعني إليه التهور ، وهي أن أكتب تاريخاً للمدنيّة ، أردت فيه أن أروى أكثر ما يمكن من النبأ في أقل ما يمكن من الصفحات ، بحيث أقصّ في روايتي ما أدته العبقرية وما أداه دأب العاملين في ازدياد تراث الإنسانية الثقافي — وأن تكون قصتي مصحوبة بتأملاتي في العلل ووصف الخصائص وما ترتب من نتائج لما أصابه الاختراع من خطوات التقدم ، ولأنواع النظم الاقتصادية ، والتجارب في ألوان الحكم ، وما تعلقت به العقيدة الدينية من آمال ، وما اعتور أخلاق الناس ومواضعاتهم من تغيرات ، وما في الآداب من روائع ، وما أصابه العلم من رُقيّ ، وما أنتجته الفلسفة من حكمة ، وما أبدعه الفن من آيات ؛ ولست بحاجة إلى من يذكرني بأن هذا المشروع ضرب من الخبل ، ولا إلى من يذكرني بأن مجرد تصور مثل هذا المشروع إمعان في غرور المرء بنفسه ؛ فلقد بينت في جلاء أنه ليس في مستطاع عقل واحد أو حياة واحدة أن تقوم بهذه المهمة على الوجه الأوفى ، ورغم ذلك كله ، فقد خيّلتْ لي الأحلام بأنه على الرغم من الأخطاء الكثيرة التي ليس عنها محيص في هذا المشروع ، فقد يكون نافعاً بعض النفع لأولئك الذين يرغمهم ميلهم الفلسفي على محاولتهم أن يروا الأشياء في كلٍّ واحد ، وأن يتابعوا التفصيلات في موضعها من صورة مجسدة واحدة ، فيروها متحدة ويوفقوا إلى فهمها خلال الزمان في تطورها التاريخي ، وأن ينظروا إليها كذلك في المكان عن طريق العلم .

لقد أحسست منذ زمن طويل بأن طريقتنا المعتادة في كتابة التاريخ مجزءاً

(1) الإشارة هنا إلى الجزء الأول في الأصل الإنجليزي ، وهو جزء سنخرجه في الترجمة العربية في خمسة كتب . (المعرب)

أقساماً منفصلا بعضها عن بعض ، يتناول كل قسم ناحية واحدة من نواحي الحياة فتاريخ اقتصادى ، وتاريخ سياسى ، وتاريخ دينى ، وتاريخ للفلسفة ، وتاريخ للأدب ، وتاريخ للعلوم ، وتاريخ للموسيقى . وتاريخ للفن — أحسست أن هذه الطريقة فيها إجحاف بما فى الحياة الإنسانية من وحدة ، وأن التاريخ يجب أن يكتب عن كل هذه الجوانب مجتمعة ، كما يكتب عن كل منها منفرداً ، وأن يكتب على نحو تركيبى كما يكتب على نحو تحليلى ، وأن علم تدوين التاريخ فى صورته المثلى لابد أن يهدف — فى كل فترة من فترات الزمن إلى تصوير مجموعة عناصر ثقافة الأمة مشتبكة بما فيها من مؤسسات ومغامرات وأساليب عيش ؛ لكن تراكم المعرفة قد شطر التاريخ — كما فعل بالعلم — إلى نواحى اختصاص تعد بالمئات ، وجفل العلماء الحكماء من محاولة تصور الكل فى صورة واحدة — سواء فى ذلك العالم المادى أو ماضى البشرية الحى ، ذلك لأن احتمال الخطأ يزيد كلما اتسع نطاق المشروع الذى يأخذه الإنسان على نفسه ؛ وإن رجلا كائناً من كان يبيع نفسه فى سبيل تكوين صورة مركبة تشمل الكلّ جملة واحدة ، لابد أن يكون هدفاً يبعث على الأسى ، لما يصيبه من ألوف السهام التى يوجهها نقد الإخصائيين إليه ؛ فتصيبه غير عابئة بجهده ؛ لقد قال فتاح حوتب منذ خمسة آلاف عام : « انظر كيف يمكن أن تتعرض لمناوأة الخبراء فى المجلس ؛ إنه لمن الحمق أن تتحدث فى كل ضروب المعرفة » ؛ إن تاريخاً يكتب للمدنية لشبيه فى جرأته بالمحاولات الفلسفية كلها : وذلك أنه يعرض علينا صورة تبعث على السخرية لجزء يشرح الكل الذى هو جزء منه ؛ ومثل هـذه المغامرة لا تستند على سند من العقل ، كما هى الحال فى الفلسفة ، وهى مغامرة أحسن ما تكون حالا أن تكون حماقة جريئة ؛ لكن ليكن أملنا أن تصيب ما تصيبه الفلسفة من توفيق فتستطيع دائماً أن تجذب إليها طائفة من النفوس المغامرة فتغوص فى أعماقها المميتة .

وخطة هذه السلسلة هى أن نروى تاريخ المدنيّة فى خمسة أجزاء مستقلة :

١ — « تراثنا الشرقى » وهو تاريخ للمدنيَّة فى مصر والشرق الأدنى حتى وفاة الإسكندر ، وفى الهند والصين واليابان إلى يومنا الحاضر ، ويسبق ذلك مقدمة عن طبيعة العناصر التى تتألف منها المدنيّة[1] :

٢ — « تراثنا الكلاسيكى » وهو تاريخ المدنية فى اليونان وروما والمدنية فى الشرق الأدنى إذ هو تحت السيادة اليونانية والرومانية :

٣ — « تراثنا الوسيط » وفيه أوروبا الكاثوليكية والإقطاعية والمدنية البيزنطية والثقافة الإسلامية والثقافة اليهودية فى آسيا وأفريقيا وإسبانيا ، والنهضة الإيطالية .

٤ — « تراثنا الأوروبى » وهو تاريخ ثقافى للدول الأوروبيـــة من الإصلاح البروتستنتى إلى الثورة الفرنسية .

٥ — « تراثنا الحديث » وفيه تاريخ الاختراع والسياسة والعلم والفلسفة والدين والأخلاق والأدب والفن فى أوروبا منذ تولى نابليون الحكم إلى عصرنا الحاضر .

إن قصتنا تبدأ بالشرق ، لا لأن آسيا كانت مسرحا لأقدم مدنيّة معروفة لنا فحسب ، بل كذلك لأن تلك المدنيات كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية التى ظن « سير هنرى مين » خطأ أنها المصدر الوحيد الذى استقى منه العقل الحديث ، فسيدهشنا أن نعلم كم مخترعا من ألزم مخترعاتنا لحياتنا ، وكم من نظامنا الاقتصادى والسياسى ومما لدينا من علوم وآداب ، وما لنا من فلسفة ودين ، يرتد إلى مصر والشرق ؛ وفى هذه اللحظة التاريخية — حيث تسرع السيادة الأوروبية نحو الانهيار ، وحيث تنتعش آسيا مما يبعث فيها الحياة ، وحيث الاتجاه كله فى القرن العشرين يبدو كأنما هو صراع شامل بين الشرق والغرب — فى هذه اللحظة نرى أن التعصب الإقليمى الذى ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ ، التى تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها فى سطر واحد ، لم يعد مجرد غلطة علمية ، بل ربما كان إخفاقا ذريعا فى تصوير الواقع ونقصا فاضحا فى ذكائنا ،

(١) هذا الكتاب يحتوى على المقدمة فى الأصل الإنجليزى . (المعرب)

إن المستقبل يولى وجهه شطر المحيط الهادى ، فلابد للعقل أن يتابع خطاه هناك .

لكن كيف يتاح لعقل غربى أن يفهم الشرق ؟ إن ثمانية أعوام قضيتها فى الدراسة والسفر لم يكن من شأنها سوى أن توضح لى هذه الحقيقة أيضاً — وهى أن العمر بأسره يخصص للبحث العلمى لن يكفى طالباً غريبا ليدمج نفسه فى روح الشرق الدقيقة اللمحات وفى تراثه الغامض ؛ إن كل فصل وكل فقرة فى هــذا الكتاب ستقع موقع الإساءة أو موقع الدعابة من نفس القارئ إن كان متحمساً لوطنه أو كان من أصحاب النفوس الغوامض : فاليهودى المتمسك بعقيدته بحاجة إلى كل ما عرف عنه من صبر قديم لكى يعفو عن الصفحات التى كتبت عن يهوا ؛ والهندوسى الضارب فيما وواء الطبيعة سيرثى لهذه الخدوش السطحية التى لمسنا بها الفلسفة الهندية ؛ وسيضحك الحكيم الصينى أو اليابانى ملء شدقية من هذه المختارات الموجزة المقتضبة اقتضاباً مخلا ، التى اقتبسناها من ثروة الشرق الأقصى الزاخرة فى الأدب والفكر ؛ ولقد صحح الأستاذ هارى ولفسن فى جامعة هارڤرد بعض أخطاء الجزء الخاص بالدولة اليهودية ؛ وراجع « الدكتور أناندا كوما راسوامى » فى معهد الفنون الجميلة ببوسطن القسم الخاص بالهند مراجعة بذل فيها أشق مجهود ، لكنه ليس بالطبع مسئولا عن النتائج التى وصلتُ إليها ، أو الأخطاء التى ما زالت باقية ؛ وتآزر الأستاذ هـ . هـ . جوِنْ المستشرق العلامة فى جامعة وشنطن ، مع أپْطُن كلُوز الذى لا ينفد علمه بالشرق فيما يظهر ، على تصحيح الأخطاء الصارخة فى الفصول التى كتبت عن الصين واليابان ، وأفادنى مستر چورچ سوكولسكى فى الصفحات التى كتبت عن شئون الشرق الأقصى فى أيامنا هذه بما له من معرفة بتلك البلاد استمدها منها مباشرة ؛ فإذا أقبل الجمهور على الكتاب إقبالا يدعو إلى طبعة ثانية منه فسننتهز هذه الفرصة لندخل كل ما عسانا نتلقاه من تصحيحات يقترحها النقاد والإخصائيون والقراء ، على أن المؤلف الذى أنهكه التعب يشاطر « تاى تنج » الذى نشر فى القرن الثالث عشر

كتابه عن « تاريخ الكتابة الصينية » حيث قال : « لو كنت لأنتظر الكمال ، لما فرغت من كتابي إلى الأبد »(*) .

ولما كانت هذه الأيام التي ينحو فيها الناس إلى استخدام آذانهم، لا تعمل على شيوع الكتب الغالية تُكتب في موضوعات بعيدة لا تشوق إلا من يعدُّون أنفسهم مواطنين للعالم كله ، فمن الجائز أن تبطئ سائر حلقات هـذه السلسلة في الظهور بفعل الضرورات القاسية التي تقتضيها الحياة الاقتصادية ، أما إن أقبل الناس على هذه المغامرة التي حاولت بها جمع العناصر كلها في مركّب واحد ، إقبالا يمكنني من تكريس نفسي في غير انقطاع لهذا المشروع ، فسيكون الجزء الثاني معدّا في أواخر ١٩٤٠ ، وستظهر الأجزاء التالية له — إن مُدّ لي في العافية — على فترات ، طول الواحدة منها خمس سنوات ؛ ولن يسعدني شيء بمقدار ما يسعدني أن أنصرف بجهدي كله لهذا العمل فلا تشغلني شواغل أدبية أخرى ؛ وسأمضي في العمل ما أسعفني الزمن وما عاونتني الظروف ، راجياً أن يشيخ معي عدد لا بأس به من معاصريّ في تحصيل العلم ، وأن يكون في هذه الأجزاء بعض العون لأبنائنا على فهم الكنوز التي لا حد لها مما يرثونه عن أسلافهم ، والاستمتاع بها ؟

مارس ١٩٣٥ ول ديورانت

(*) ت . ف . كارتر ؛ « اختراع الطباعة في الصين وانتشارها صوب الغرب » ؛ طبع في نيويورك ١٩٢٥ ، ص ١٨ من المقدمة .